الثقافة والتكنولوجيا في عصر الجماهير الغفيرة

لا شك أن التحديات، والعقبات، والمشكلات السياسية، وحقوق الإنسان، والتطورات الدولية، والتوقعات الاقتصادية، والحروب والفتن، والفساد الحكومي، والنمو المتزايد في أعداد السكان؛ ومن ثم الزيادة في أعداد المهمشين سياسيًا، وزيادة الفجوة التكنولوجية، والتفاوت الكبير في مستوى المعيشة كان لها دور كبير في الاتجاه نحو دراسة ظاهرة الجماهير الغفيرة في عصرنا الحالي، كما أثرت زيادة أعداد مستخدمي الإنترنت ليشكلوا فكرًا، ورأيًا معارضًا أو مؤيدًا، ولتنتج ممارسات ديمقراطية على الإنترنت

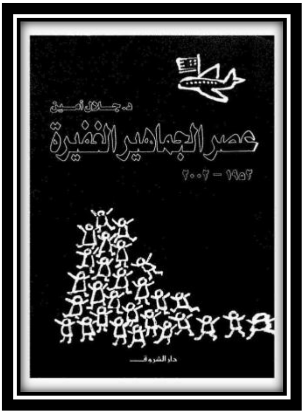

كالتصويت الإلكتروني والحكومة الإلكترونية؛ ومن ثم الحديث عن أخلاقيات الإنترنت، وهي موضوعات تحتاج دراسة عميقة متشعبة الأطراف للإلمام بأبعاد العلاقات المتشابكة والمترابطة عند تخطيط السياسات الإعلامية والثقافية الجديدة، وعلى الرغم من ظهور دراسات عديدة للحالة المصرية اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا يظل الجهد المبذول من المفكر الكبير جلال أمين مختلفًا ومميزًا، وقد قام في كتابه الأشهر "ماذا حدث للمصريين؟.. المجتمع المصري في نصف قرن ١٩٤٥-١٩٩٥" برصد التحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية التى أصابت المصريين خلال نصف قرن، ويأتي كتاب "عصر الجماهير الغفيرة ١٩٥٢ – ٢٠٠٢" بمثابة استكمال لكتاب "ماذا حدث للمصريين؟" ولكن هناك اختلافًا مهمًا بين الكتابين، فبينما الفكرة المسيطرة على الكتاب الأول هي فكرة الحراك الاجتماعي أي أثر ما حدث للتركيب الطبقي للمجتمع المصري على مختلف مظاهر حياتنا الاجتماعية، يركز كتاب "عصر الجماهير الغفيرة" على الآثار المترتبة على زيادة حجم السكان الفعال بصرف النظر عن التغييرات التي لحقت المركز النسبي للطبقات.

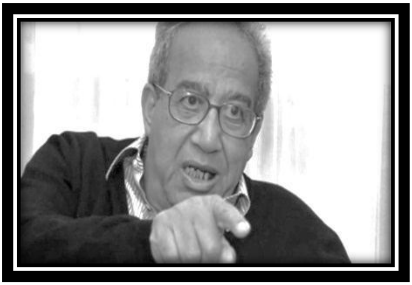

بدأت الظاهرة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، بعد الانتصار العسكري والسياسي للولايات المتحدة الأمريكية، العالم، ونظرًا لتفوقها السياسي والعسكري والاقتصادي، والتكنولوجي، فرضت طبيعة الحياة الأمريكية وما تحمله من قيم تجارية واستهلاكية نفسها على معظم العالم وبخاصة الدولة النامية التي كانت تبحث عن نموذج متقدم للانحياز له في مقابل النماذج الاشتراكية وقتها.

ولفهم ظاهرة الجماهير الغفيرة كما يوضحها الكاتب يجب الأخد في الاعتبار عدة متغيرات وهي أن هناك علاقة أساسية بين عصر الجماهير الغفيرة والتقدم التكنولوجي، لأن هذا التقدم هو الذي يساعد على توفير السلع الضرورية لنسبة عالية من السكان، أما المتغير الثاني فهو أن درجة التقدم نحو مجتمع الجماهير الغفيرة يتفاوت بتفاوت درجه التقدم

والتكنولوجيا، والمتغير الثالث هو أثر الولايات المتحدة على العالم ونقله لمجتمع الجماهير الغفيرة وريادتها فى ذلك الأمر.

ويشير المؤلف للحيرة القائمة عند تقييم ظاهرة الجماهير الغفيرة، فيذكر أنها "ظاهرة مؤسفة ومفرحة فى نفس الوقت، فبقدر ما ضربت الصفوة ولقنت درسًا فى التواضع والتزام الحدود، تحررت الجماهير الغفيرة وحصلت على ما كانت محرومة منه من حقوق، هذا هو المكسب الحقيقي الذي حققه العالم فى الخمسين عامًا الماضية، وهذا هو مربط الفرس في فكرة التقدم. ربما لم نعد الآن أسعد أو أرقى حقا مما كنا منذ خمسين عامًا، ولكن من المؤكد أن ما كان مقصورًا على القلة أصبح فى متناول كثيرين. وهذا هو الدفاع الحقيقي، فى ما يظهر، عن التكنولوجيا الحديثة، من المشكوك فيه جدًا أنها جعلتنا أكثر سعادة أو أكثر رقيًا، إنها فقط جعلتنا "أكثر".

ويبرز الكاتب تأثيرًا مهمًا للظاهرة على الثقافة فيذكر أنه قبيل الحرب العالمية الثانية كانت تصدر في مصر مجلتان ثقافيتان رفيعتا المستوى هما: "الرسالة" و"الثقافة"، ولم تكن أي منهما تطبع وتوزع أكثر من ألفي نسخة، ومع ذلك كان لهما تأثير عظيم في مصر والعالم العربي، تغير الأمر في أعقاب الحرب، وبدأتا تواجهان خسارة متزايدة، وأصبحت كل منهما تشكو من ضآلة حجم الطلب عليها بالنسبة لنفقات الطباعة، لم يكن عدد القراء قد انخفض بالطبع، بل بالعكس، فقد ازداد بداهة مع ازدياد عدد السكان والمتعلمين، ولكن المشكلة لم تكن في الحجم المطلق للطلب على المجلتين بل في حجمه النسبي، ففي الوقت الذي ازداد فيه عدد قراء المجلتين الرفيعتين زاد أيضًا، وبنسبة أكبر بكثير، عدد قراء نوع آخر من المجلات والجرائد الأكثر سطحية والأكثر استجابة لغرائز القراء.

وربما يفسر ذلك ما أوضحه المؤلف في موضع آخر وهو النقمة المتعلقة بالثقافة، ذلك أن هذا الاتساع الكبير فى السوق، هو نفسه، قد جعل من المربح جدًا أن تنتج ثقافة متوسطة المستوى، بمعنى أنها ثقافة تستجيب للقاسم المشترك الأعظم بين جمهور غفير من الناس، وهذا القاسم المشترك ليس للأسف بأفضل الأشياء أو أعمقها أو أنبلها، أو أجملها أو أكثرها ذكاء، بل هو فى أغلب الأحيان أكثر الأشياء استجابة لغرائز الإنسان الدنيا: الجنس أولا، والعنف ثانيا.

قد يقال: ألا يعنى اتساع السوق أيضا، وجود سوق متسعة كذلك للأشياء الجميلة والنبيلة والذكية... إلخ؟ ألا تسمح ضخامة حجم السكان، مع ارتفاع مستوى الدخل، بوجود عدد كبير أيضًا من المتعلمين وواسعي الثقافة ومن ذوي الذوق الراقي والحس المرهف، أكثر مما تجده فى مجتمع صغير السكان و منخفض الدخل؟ بلى، هذا صحيح بالطبع. ولكن المهم هنا ليس العدد المطلق بل العدد النسبي، فالذى يحدد نوع الثقافة التى سوف تسود فى النهاية ليس هو العدد المطلق لمن يطلب هذا النوع من الثقافة أو ذلك، بل الحجم النسبى لكلا النوعين، فإذا كانت نسبة طالبي الثقافة الهابطة أعلى بكثير من نسبة طالبي الثقافة الرفيعة، حتى ولو كان عدد طالبي الثقافة الرفيعة كبيرًا كعدد مطلق، فلابد أن تسود الثقافة الهابطة.

وهنا يوضح الكاتب أن القول بأن الرأسمالية تنفي الثقافة، يلمس أيضًا جانبا مهما من الحقيقة، إذا أخذنا الثقافة بالمعنى الضيق، أي بمعنى الإنتاج الفكري والفني. فكما سبقت الإشارة أن الإنتاج الواسع هو عدو الثقافة الرفيعة، إذ يعتمد على الاستجابة لما يشترك فيه الناس جميعًا، وينفر مما لا يستجيب إلا لنوازع الصفوة، إذ إن هذا النوع الأخير قليل الربح وغير مضمون العائد. ولكن ثقافة الجماهير، يمكن أن توصف، دون أن نبتعد كثيرًا عن الحقيقة بأنها لا ثقافة أو أنها نفى للثقافة

أصلاً، فالمسرحيات الهزلية التى لا تطلب من المشاهد قدرات أكبر من القدرة على الضحك على سقوط الممثل على وجهه، أو ضرب ممثل لآخر على قفاه، أو ظهور ممثل على خشبة المسرح بالملابس الداخلية... إلخ، وأفلام الإثارة التي تعتمد على تعرية الممثلة لجسمها أو على الإشارات الجنسية المتكررة طوال الفيلم.. إلخ، هذه المسرحيات أو الأفلام يمكن أن توصف ليس بأنها مجرد ثقافة هابطة بل بإنها ليست ثقافة أصلا.

يحكي جلال أمين من خلال كتابه ذكريات ما قبل عصر الجماهير الغفيرة "كان ذلك منذ نحو خمسين عامًا، عندما ركبت الطائرة للمرة الأولى، وما زلت أذكر كيف كان راكبو الطائرات يعاملون في تلك الأيام، كنا نحن راكبي الطائرات نمثل نسبة ضئيلة للغاية من سكان العالم، أي أننا كنا أرستقراطية بكل معنى الكلمة، وكان على شركات الطيران والعاملين فيها، من مضيفين ومضيفات، والمشتغلين ببيع التذاكر وحجز المقاعد، أن يعاملونا بصفتنا أرستقراطية العالم، كان كل شيء أرخص بكثير منه الآن ولكن تلك الجنيهات القليلة التي كانت تذكرة الطائرة تتكلفها كانت فوق متناول أيدي الغالبية العظمى من سكان العالم، الذين كان عليهم بسبب ذلك أن يكتفوا بالبقاء في مدينتهم أو قريتهم لا يتجاوزونها، أو على أحسن تقدير، أن ينتقلوا من مكان إلى آخر بالقطار الذي كان وسيلة للانتقال أكثر شعبية بكثير من

الطائرة". ثم يقارن بين تلك الأوضاع وماحدث بعد ذلك "مرت السنوات ورأيت الأمور تتغير شيئًا فشيئًا حتى رأيت نفسي في أحد الأيام واقفًا في صف طويل ينتظر صعود الطائرة المتجهة إلى إحدى دول الخليج، وكان أغلب الواقفين أمامي وخلفي من العمال المصريين، لم يكونوا يرتدون القميص والبنطلون مثلي بل الجلباب، كان الجلباب نظيفًا ومختارًا بعناية ليناسب مقام الطائرة، ولكن من الواضح أيضًا أن معظم الواقفين كانوا من ذوي الدخل المنخفض الذاهبين إلى الخليج بحثًا عن عمل، وكثير منهم لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة، تغيرت معاملة موظفي شركات الطيران للركاب نتيجةً لذلك، لم نعد نحن راكبي الطائرة أرستقراطية العالم، بل أصبحنا (جماهير غفيرة)".

وبالكتاب فصل مهم عن أحد أهم الأزمات التي صاحبت الفترة الأخيرة من حكم الرئيس المخلوع حسني مبارك وهو "قطار الصعيد". وفيه يحكي الكاتب عن ركاب الدرجة الثالثة وحكاية القطار رقم ٨٣٢ الذي يغادر القاهرة في الساعة ١١ ونصف ليصل أسوان بعد رحلة طولها ١٦ ساعة، وأحداث ذلك اليوم السابق لعطلة عيد الأضحى مباشرة عام ٢٠٠٢، حيث كل عربة من عربات الدرجة الثالثة تحمل مقاعد تكفي لجلوس ٩٦ شخصًا لكن الواقع أنها تحمل أضعافًا مضاعفة، وحتى الممرات كانت مشغولة بالركاب الجالسين القرفصاء،

بينما ينام آخرون على الرفوف المعدة لوضع الحقائب، وتواجد البلطجية، ولذلك حينما وقعت الواقعة وحدث الماس الكهربائي في العربة الأخيرة من القطار تحول لحريق هائل امتد بسرعة من حقيبة ملابس لحقيبة ملابس ومن راكب إلى راكب بسرعة مذهلة بسبب تكدس هذه الأجساد، وعلى الرغم من تكرار هذه الحوادث في تلك الفترة وقبلها وبعدها إلا أن ما لفت الأنظار هو عدد الضحايا وبشاعة ما حدث وهو ما يشير إلى المعاملة السيئة من الدولة للفقراء وعدم اهتمامها للزيادة السكانية.

ولكن أخطر ما في الكتاب هو الفصل الأخير وعنوانه (الدين والدنيا) حيث يرصد مواقف عديدة حياتية خاصة ويربطها

بالعامة كالموقف من قضية الإصلاح سواء كان جزئيًا أو شاملاً وموقف الأجيال القديمة والجديدة منه فيذكر: "كان جدي يرى الإصلاح في حكم المستحيل، ورآه أبي ممكنًا، والمطلوب إصلاحه في نظره هو حال المسلمين، ورأيته أنا أيضًا ممكنًا والمطلوب إصلاحه هو حال مصر وعلى الأكثر حال العرب، أما ابني فإني أراه يتصرف وأسمعه يتكلم وكأن الإصلاح الشامل في حكم المستحيل، سواء كان إصلاح المسلمين أو العرب أو مصر، وهو يتصرف وكأن الأهم هو انصراف المرء لحاله وألا يشغل باله أكثر من اللازم بأمور هي أعجز من أن يحدث فيها أي أثر، أو على الأكثر أن ينصرف المرء إلى محاولة إصلاح جزئية صغيرة يستطيع أن يحدث فيها بعض الأثر، قد يبدو للمرة الأولى وكأن ابني قد عاد إلى النقطة التي بدأ منها جدي وهي الاعتقاد بأن الفرد منا أتفه وأعجز من أن يحدث أي تغيير مهم في نظام المجتمع، ناهيك عن تغيير نظام الكون "ولعل في كلامه خلاصة مهمة لما وصلنا إليه في الواقع وأزمة التغيير الصعب.